بقلم: رائد دحبور*

«الصهيونيَّة وجدليَّة التَّنَوُّع الفكري - طبيعة الجذور الفكريَّة لليمين الصُّهيوني»

تقديم

إنَّ البحث في موضوع الفكر الصهيوني، بما هو عام -وكجدليَّةٍ معقَّدة من التَّنوُّعات والانشطارات – وكذلك البحث في الجذور الفكريَّة لليمين الصُّهيوني على نحوٍ خاص بكونه أحد تلك التَّفرُّعات -وربَّما أهمُّها لجهة الفعل السِّياسي والاجتماعي على جدول أعمال الدولة والمجتمع، كما يبدو المشهد الإسرائيلي الآن -يقودانِ إلى مراجعاتٍ منهجيَّة لجملَة كبيرة من النقاشات الأكاديميَّة والمجادلات التاريخيَّة المتشعِّبة والطويلة والمُشْبَعة بالآراءِ المتباينة.

لذا فإنَّ هذا المقال يهدف وفي سياقيْنِ اثنَيْنِ أساسيين من المناقشة، إلى البحث في الجذور الفكريَّة لليمينِ الصهيوني في الإطار العام للصهيونيَّة، تاريخيًّا ومنهجيًّا، ولكن بإيجازٍ ما أمكن، من خلال تناول بعض الأمثلة التاريخيَّة التأسيسيَّة لأطروحة الصهيونيَّة في محاولَةٍ لاستكشافِ التّفرُّعات وفق منهج معاينة نقاط انطلاق مُشْتَرَكة، وما ترتَّبَ عليها من ثيمةِ وجدليَّة التَّنَوُّع وبعض التباينات.

وهو يهدف أيضاً إلى مُعاينة الظروف التي ازدادت فيها هيمنة مفاهيم اليمين الصهيوني على جدول أعمال الدولة والمجتمع في إسرائيل، وكمحصلة متصلة على نحوٍ وثيق بتطبيقات مفهوم التَّوسُّع الإقليمي الإسرائيلي كسببٍ ونتيجةٍ في آنٍ معاً لحرب حزيران عام ٦٧ التي أعادتْ لفت الانتباه إلى الآيديولوجيا الدينيَّة والمسيانيَّة المتعلقة بالتدخل الإلهي من أجل خلاص الشعب اليهودي، فبعد احتلال ما تبقَّى من فلسطين في حرب حزيران عام ٦٧ طرأ تحول على موقف معظم الأحزاب الدِّينيَّة الصهيونيَّة وغير الصهيونيَّة من اعتبار هذه الحرب معجزة وإشارة ربَّانيَّة، إلى اعتبارها بداية الخلاص..

* كاتب وباحث

انطلق الصوت الجديد من الولايات المتّحدة موطن زعيم حركة «حاباد» الحاخام شنيئرسون، الملقّب بالحاخام لوبافيتش، ويتلخّص الموقف الجديد بالقول: «إنّه صحيح أنّ دولة إسرائيل بوصفها كياناً صهيونيّاً هي تعبير عن الكفر والتمرّد على إرادة الله، ولذلك فهي بالتأكيد ليست تعبيراً عن الخلاص، لكن، ومن ناحيةٍ أخرى؛ فإنّ أرض إسرائيل بسيادة يهوديّة تنطوي على مغازٍ أو معانٍ دينيّة ذات أهميّة». ولذلك تدعو هذه الحركة إلى عدم التنازل عن أيٍّ من الأراضي التي احتلّت سنة ١٩٦٧، وذلك من منطلق أحكام الشّريعة الدّينيّة.

في الأوساط الدّينيّة غير الصهيونيّة، انطلق الصوت الجديد من الولايات المتّحدة موطن زعيم حركة «حاباد» الحاخام شنيئرسون، الملقّب بالحاخام لوبافيتش، ويتلخّص الموقف الجديد بالقول: «إنّه صحيح أنّ دولة إسرائيل بوصفها كياناً صهيونيّاً هي تعبير عن الكفر والتّمرُّد على إرادة الله، ولذلك فهي بالتأكيد ليست تعبيراً عن الخلاص، لكن، ومن ناحيةٍ أخرى؛ فإنّ أرض إسرائيل بسيادة يهوديّة تنطوي على مغازٍ أو معانٍ دينيّة ذات أهميّة». ولذلك تدعو هذه الحركة إلى عدم التّنازل عن أيٍّ من الأراضي التي احتُلّتْ سنة ١٩٦٧، وذلك من منطلق أحكام الشّريعة الدِّينيَّة،[1] لذا سنركّز على نتائج مرحلة التّوسُّع الإقليمي الإسرائيلي بفعل حرب حزيران عام ٦٧ وما انطوت عليه من مضامين لجهة زيادة نفوذ المفاهيم اليمينيّة اللّيبراليّة والقوميّة والدّينيّة المُتحالفة براغماتيّاً – سياسياً واجتماعيّاً – على قاعدة جملة من القواسم المشتركة؛ وذلك في محاولة لفهم منطلقات وطبيعة اليمين؛ لأنّ معاينة النتائج عبر المثال السياسي والاجتماعي – كَتجَلٍّ واقعي وموضوعي لمفاهيم اليمين – يُعطي رؤيَةً أكثر وضوحاً لطبيعة الجذور الفكريَّة وسياقاتها المنهجيَّة وأسانيدها.

«مُلَخَّص في سِيَاقاتِ البحث»:

سنمضي في ملاحظة بعض الملامح العامَّة لانبثاق ظاهرة الصهيونيَّة في الإطارَيْنِ التاريخي والفكري العام؛ وما تفرَّع عنها من تيَّاراتٍ فكريَّة –ومنها تيَّارات اليمين– وكذلك سنمضي في معاينة المثال العملي لظاهرة اليمين، من خلال ما تحظى به من دورٍ مهيمن على جدول أعمال الدولة والمجتمع في إسرائيل، في سِياقَيْنِ اثنَيْنِ من المناقشة، هما:

السِّياق الأوَّل:

يُلْمِحُ هذا السياق من البحث إلى الإطار التاريخي والفكري العام للصهيونيَّة وما يظهر فيه ممَّا يمكن تسميته بجدليَّة التَّنَوُّع الثقافي والسِّياسي، لكن القائم على قاعدة الأسطورة التَّأسيسيَّة المشتركة للصهيونيَّة الّتي هي: نفي المنفى، والعودة إلى أرض إسرائيل، والعودة إلى التاريخ[2] بدءاً بمرحلة طلائع الصهيونيَّة، أو ما عُرِفَ بظاهرة المفكِّرين الأوائل ما قبل ثيودور هرتسل. وكذلك فإنَّ هذا السياق يتناول ما في الفكر الصهيوني بوجه عام من تباينات فرعية، وببعض ما دار في إطاره وحوله من مجادلات ومناقشات.

سنلاحظ في هذا السِّياق – على سبيل المثال – أنَّ بعض الجذور الفكريَّة لليمين الصهيوني القومي والدِّيني تمتد إلى أفكارٍ كان قد طرحها عديدٌ من الحاخامات في مرحلة انبثاق الصهيونيَّة، وتتَعلق بتحقيق الفرائض المنصوص عليها في التعاليم الدِّينيَّة لجهة علاقة اليهود بأرض إسرائيل وواجب الاستيطان فيها. وقد تبلور هذا التيار وازداد قوة، وعُرِفَ فيما بعد باسم الصهيونيَّة المتديِّنة، التي استمر مؤيِّدوها في إصدار الفتاوى الدِّينيَّة، من حينٍ لآخر عند الضرورة؛ بشكلٍ سهَّلَ على اليهود المتدينين التعاملَ مع الصهيونيين العلمانيين، في مساعيهم لإقامةِ دولة يهوديَّة في فلسطين، خلال كل فترات النشاط الصهيوني، بل وحَمَلَهُم على مُجاراتِهم في كلِّ مجالات نشاطهم.

وقد كانت تلك الفتاوى كافية لدفع كلٍّ منهم إلى عرض آرائه الخاصَّة؛ ممَّا أسهم في تعميق الأُسس الفكريَّة لنظرياتِ الصهيونيَّة المتديِّنة.[3] ويمكننا أنْ نلحظ – على سبيل المثال –أنَّ كثيراً من الجذور الفكريَّة للصهيونيَّة وما تفرَّع عنها تكمن في كتاب (التَّحرير الذَّاتي) للدكتور يهودا ليف بينسكر (١٨٢١ – ١٨٩١) قبل أن يكتب ثيودور هرتسل كتاب دولة اليهود؛ وقد

بعض الجذور الفكريَّة لليمين الصهيوني القومي والدِّيني تمتد إلى أفكارٍ كان قد طرحها عديدٍ من الحاخامات في مرحلة انبثاق الصهيونيَّة، وتتِعلق بتحقيق الفرائض المنصوص عليها في التعاليم الدِّينيَّة لجهة علاقة اليهود بأرض إسرائيل وواجب الاستيطان فيها. وقد تبلور هذا التيار وازداد قوة، وعُرِفَ فيما بعد باسم الصهيونيَّة المتديِّنة، التي استمر مؤيِّدوها في إصدار الفتاوى الدِّينيَّة، من حينٍ لآخر عند الضرورة؛ بشكلٍ سهَّلَ على اليهود المتدينين التعامل مع الصهيونيين العلمانيين.

كتب هرتسل في مذكَّراته: أنَّه لو كان اطَّلَع على كتاب التحرير الذَّاتي؛ لما أقدم على كتابة دولة اليهود عام ١٨٩٦،[٤] لكنَّ إلماحنا إلى هذا المرحلة سيكونُ موجزاً، وبما يُفيدُ فقط في ملاحظة ملامح عامَّة في الإطار الفكري العام لأطروحة الصهيونيَّة.

وفي هذا السِّياق المتصل، سنتناول الجذور الفكريَّة لليمين الصهيوني المرتبط بأفكار زئيف جابوتنسكي (١٨٨٠–١٩٤٠) ورؤاه المُلْهمة لليمين الصهيوني حتَّى الآن؛ فقد طوَّر جابوتنسكي أفكاراً اجتماعيَّة وسياسيَّة خاصَّة تحفظتْ على المفاهيم الطبقيَّة التي كانت مُتداوَلة لدى حركة العمل العبري في عشرينيَّات القرن الماضي، وسجَّلت انتقاداتٍ للاعتماد بصورة كبيرة على البيشوف الاستيطاني كوسيلة أساسيَّة من وسائل إقامة الدَّولة التي كانت تتبنَّاها الصهيونيَّة الاشتراكيَّة في ذلك الوقت؛ مُنادياً باعتماد وسائل سياسيَّة أكثر نجاعَةً من خلال الاعتماد على التحالف مع بريطانيا ومن خلال المزيد من القوَّة وهما الوسيلتان اللَّتانِ بمقدورهما وحدهما إرغام العرب على التسليم بالمشروع الصهيوني كواقع موضوعي. فقد توَّج جابوتنسكي نشاطه بإقامة إطارٍ سياسي سنة ١٩٢٥ على شكلِ حزبٍ يحمل اسم «اتِّحاد الصهيونيين التَّصحيحيين» بهدف تصحيح المسار الصهيوني، ومن بين أهداف الحزب، العمل على تحقيق المشروع الصهيوني على ضِفّتَيِّ نهر الأردن بإقامَةِ دولة يهوديَّة بأكثريَّة يهوديَّة. حيث لم يترك جابوتنسكي فرصةً إلَّا واغتنمها لبثِّ دعوته بخصوص الجيش العبري على سبيل المثال – باعتباره ركيزة أساسيَّة من ركائز بناء المشروع الصهيوني والمضي فيه –ومن أشهر مقالاته حول ذلك، مقال يحمل عنوان: «الجدار الحديدي» ويعني به الجيش العبري الذي سيضمن، حسب اعتقاده، تحقيق المشروع الصهيوني في فلسطين وشرق الأردن ويكون بمقدوره منع العرب من عرقلة سير بناء المشروع الصهيوني.[٥]

فقد تبنى جابوتنسكي خط هرتسل في الفكر الصهيوني الدَّاعي إلى تحضير الظروف السياسية لكل عملية استيطانية، وأخذ ينادي إلى توضيح صريح للهدف الصهيوني، وتبنى أيضاً شعار «ضفتي الأردن» ما أثار غضب حكومة الانتداب البريطانية وما حدا بسلطات الانتداب إلى منعه من دخول فلسطين إلى أجل غير مسمىً عام ١٩٣٠. وقد واجه جابوتنسكي الحركة العمَّالية التي اتهمها بأنها حجر عثرة أمام تحقيق الفكر الصهيوني، أمَّا الحركة العمالية فوجَّهَتْ إليه تهماً شديدة، بأنَّه ديماغوجي وفاشي وعدو للعمال، وساءت العلاقات بينه وبين الحركة العمالية في مطلع الثلاثينيات وبالأخص في أعقاب مقتل أورلوزروف عام ١٩٣٣.[٦]

في عام ١٩٣٩ كتب جابوتنسكي: «يجب أنْ يُخلي العرب المكان لليهود في أرض إسرائيل. وما دام أمكن نقل «transfer» شعوب البلطيق؛ يمكن أيضاً نقل الفلسطينيين العرب.»[٧] وقد كان الهدف مما ذهب إليه جابوتنسكي من أفكارٍ وآراء؛ هو إقامة الدولة في فلسطين بأغلبيَّة يهوديَّة عبر وسائل الهجرة المكثَّفة والقوَّة والتحالف التام مع بريطانيا.

السِّياق الثَّاني:

بِكَوْنِ الصُّهيونيَّة – تبقى –ظاهرة جدليَّة لجهة الأفكار والمنهج العملي، ولأنَّ إسرائيل ظاهرة صهيونيَّة موضوعيًّا وعمليًّا، ولأنَّ اليمين الصهيوني بالمحصِّلة هو ظاهرة إسرائيليَّة أكثر من كونه أيَّ شيءٍ آخر؛ وضمن ما تفرضه أفكاره ومفاهيمه من حضور وهيمنة على جدول الأعمال السياسي والاجتماعي في إسرائيل؛ فإنَّ المناقشة في هذا السياق تستهدف:

معاينة الظروف والأسباب وكذلك النتائج السياسيَّة العمليَّة – وليس التجريديَّة – لظاهرة زيادة هيمنة اليمين الصهيوني ذات الأصول المتنوِّعة آيديولوجيًّا. وهنا ينبغي الإشارة إلى

تبنى جابوتنسكي خط هرتسل في الفكر الصهيوني الداعي إلى تحضير الظروف السياسية لكل عملية استيطانية، وأخذ ينادي إلى توضيح صريح للهدف الصهيوني، وتبنى أيضاً شعار « ضفتي الأردن « ما أثار غضب حكومة الانتداب البريطانية وما حدا بسلطات الانتداب إلى منعه من دخول فلسطين إلى أجل غير مسمىً عام ١٩٣٠. وقد واجه جابوتنسكي الحركة العمالية التي اتهمها بأنها حجر عثرة أمام تحقيق الفكر الصهيوني.

ملاحظة أساسيَّة يُراعيها البحث، وهي: حقيقة أنْ ليس كل اليمين الصهيوني، يمين ديني أُصولي، لكننا ومع ذلك؛ نجد أنَّ تيَّارَ الصهيونيَّةِ القوميَّة الليبراليَّة والعلمانيَّة، يتحالف – ربَّما إلى حدِّ التطابق - في الواقع الموضوعي الإسرائيلي مع الصهيونيَّة القوميَّة الدِّينيَّة، واليهوديَّة الأرثوذكسيَّة، وفق جُمْلةٍ من القواسم المشتركة آيديولوجيًّا وسياسيًّا وعلى قاعدة المصالح المشتركة، ونجد في الواقع الموضوعي أيضاً؛ أنَّ ما يُعرف باليسار الصهيوني - وتحت العنوان الشَّهير المعروف بمسائل الإجماع القومي – يتحالف هو الآخر مع مختلف تيَّارات اليمين العلمانيَّة والدِّينيَّة.

ومع أنَّ معاينةً من هذا النَّوع – وإنْ لم تُغَطِّ إلَّا جزءاً يسيراً وجانباً صغيراً جدًّا من واقع العلاقات الجدليَّة المركَّبة بين مكوِّنات السِّياسة والمجتمع في إسرائيل - إلَّا أنَّه ربما يُفيد في معاينة وفهم بَعْض من طبيعة ومنطلقات اليمين الفكرية والثقافية وأسانيده الآيديولوجيَّة؛ إذْ بدأت بواكير ومفاعيل تلك الهيمنة منذ أربعة عقود خلت من الزَّمن ضمن توليفةٍ من الأحزاب والقوى والعوامل السِّياسيَّة والاجتماعيَّة والآيديولوجيَّة – وبما ينبغي أنْ يُفرَدَ لها مساحاتٍ بحثيَّة عميقة ومتخصِّصة ومُسْهَبة وهي موجودة بلا شك – فقد بدأتْ هيمنة اليمين وتجلِّياتها – وكما هو معروف وشائع - منذ عام ١٩٧٧؛ حيث حمل الانقلاب السياسي الذي جرى حينها بفعل نتائج الانتخابات، حزب الليكود - المتأثِّر بأفكار زئيف جابوتنسكي - وتكتل الأحزاب اليمينيَّة إلى جانبه إلى سدَّة الحكم، وأرَّخَ لبداية التحالف بين اليمين القومي العلماني أو الليبرالي الصهيوني وبين اليمين القومي الدِّيني. مع ضرورة الملاحظة؛ أنَّ اتِّجاهاً يمينيًّا كان قد بدأ وفي وقتٍ مبكِّر من عشرينيَّات القرن الماضي حتَّى في أوساط الصهيونيَّة الاشتراكيَّة والحركة العمَّاليَّة بقيادة بن غوريون، وهو اتِّجاهٌ يمينيٌّ ارتبط من حيث الدَّوافع بتفضيل الرُّؤى والأهداف القوميَّة المتطرِّفة، لكن في بيئة ثقافيَّة مختلفة عن بيئة الاتِّجاهات اليمينيَّة المُتأثِّرة بأفكار زئيف جابوتنسكي وحركة بيتار ثلاثينيَّات القرن الماضي. فقد كان ينمو في داخل الحركة العمَّاليَّة الصهيونيَّة نفسها أيضاً اتِّجاهٌ يمينيٌّ على أساس تفضيل الأفكار والأهداف القوميَّة على الأفكار المتصلة بتحقيق المساواة الاجتماعيَّة.

إنَّ قرار تفضيل الأهداف القوميَّة على الاجتماعيَّة عَكَسَهُ تاريخ الحركة العمَّاليَّة منذ نهاية الهجرة الثَّانية إلى تأسيس حزب العمل سنة ٦٨. وتاريخ الحركة العمَّاليَّة -من عدَّة أوجه -قد يتم النظر إليه على أنَّه اندفاعٌ متواصل نحو اليمين، في عمليَّةٍ جَرَفَتْ باستمرار مبادىء راديكاليَّة هي الأكثر قرباً من طموحات مجتمع أكثر مساواة. إنَّ سلسلة التوحيدات التي قادت أوَّلاً إلى تأسيس حزب ماباي، وبعد ذلك بأربعين سنة إلى تأسيس حزب العمل، كانت لها النَّتيجة ذاتها: التزامٌ متزايد بالأهداف القوميَّة بدلاً من تلك الأهداف التي تعكس الطُّموح للمساواة. كان تأسيس أحْدوت هَعفوداه، بعد ذوبان حركة بوعالي تصيون في فلسطين – حزب العمال الديمقراطي الاجتماعي اليهودي تأسس نهاية عام ١٩٠٥-قد ختم المرحلة الأولى من الاندفاع نحو اليمين. إنَّ تأسيس الهستدروت بالشراكة بين أحدوت هعفوداه وهبوعيل هتسعير والإعلان عن شخصيتها العامَّة -الشاملة وغيرالحزبيَّة – قد شكل المرحلة الثانية في عملية توكيد الأولويَّة للأهداف القوميَّة. بعد عشر سنوات قدَّم تأسيس ماباي مشهداً فريداً في العالم الاشتراكي. الحقيقة أنَّه في نهاية العشرينيَّات وُضِعَتْ أركان المملكة وفي الثلاثينيَّات بدأ النِّظام في العمل.. لقد شكلت الاشتراكيَّة البنَّاءَة أسس المملكة؛ فمنذ نشاطه كقائد سياسي، رأى بن غوريون نفسه كمؤسس لمملكة، نبيٌّ مُسَلَّح، وليس كمرشد اجتماعي. لقد فهم زئيف جابوتنسكي، قائد الحركة التصحيحيَّة، ذلك تماماً – خاصة لجهة التعاون بين اليسار الاشتراكي ومركز البرجوازيَّة – فلم ينظر إلى البرجوازيَّة اليهوديَّة في فلسطين كقاعدة نفوذ لحركته. توجَّهت أنظاره إلى الجماهير اليهوديَّة في بولندا، الذين لم يتفقوا دائماً مع طليعة الحركات الريادية،

مع ضرورة الملاحظة: أنَّ اتِّجاهاً يمينيَّاً كان قد بدأ وفي وقتٍ مبكرٍ من عشرينيَّات القرن الماضي حتى في أوساط الصهيونيَّة الاشتراكيَّة والحركة العماليَّة بقيادة بن غوريون، وهو اتِّجاهٍ يمينيٍّ ارتبط من حيث الدوافع بتفضيل الرُّؤى والأهداف القوميَّة المتطرِّفة، لكن في بيئةٍ ثقافيَّة مختلفة عن بيئة الاتِّجاهات اليمينيَّة المتأثِّرة بأفكار زئيف جابوتنسكي وحركة بيتار ثلاثينيَّات القرن الماضي.

ومع احتقارها لثقافة الييديش التقليدية.[٨]

(١) - الإطار التاريخي والفكري العام. جذور اليمين وجدليَّة التنوُّع الفكري والمنهجي:

لم تكن الفكرة الصهيونيَّة بمفهومها الدَّاعي إلى «إرجاع» اليهود إلى فلسطين وإقامة دولة لهم فيها حيث يتم الاعتراف بها دوليَّاً، من خلال نشاطٍ سياسي واستيطاني يقومون به وليدة القرن التاسع عشر بالضَّبط، لكنَّ نظرةً أعمق إلى الوقائع، تُظهر أنَّه ليس هناك أي علاقة موضوعية واضحة بين الفكرة الصهيونيَّة، ومفهومها الدَّاعي إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين، وبين المحاولات التي كانت تبذلها بعض الفئات اليهودية، أو الأشخاص، لـ«العودة» إلى فلسطين، والعيش بالقرب من الأماكن المقدسة فيها، من خلال نزعات دينيَّة صرفة، ودون أن تكون لها أيضاً علاقة مع الدعوات التي يطلقها بعض المغامرين – من رجال الدين والسياسيين الأوروبيِّين – من غير اليهود؛ ولهذا فإنَّ تاريخ الصهيونيَّة التي أنجبت دولة إسرائيل، بمفهومها السياسي والاجتماعي، وعلى الصعيد النظري على الأقل، يبدأ مع نهاية الثلاثينيَّات من القرن التاسع عشر .[٩]

ثمَّة أمثلة كثيرة ممَّا يمكننا تسميته بظاهرة المفكِّرين الأوائل أو بظاهرة طلائع الفكرة الصهيونيَّة، وهذه الظاهرة وُجِدَت قبل المؤتمر الصهيوني الأوَّل المنعقد في بازل عام ١٨٩٧ بعدَّةِ عقودٍ من الزَّمن، خصوصاً ما بين أعوام ١٨٦٢ و ١٨٨٤، وقد كان ذلك قبل أنْ يكتب ثيودور هرتسل أولى كتاباته المعبرة عن الفكرة الصهيونيَّة المتمثِّلة بمسرحية " الغيتو الجديد " أو رواية "الأرض القديمة الجديدة " اللتين أفصح من خلالهما عن اتِّجاهاته الصُّهيونيَّة لجهةِ إيجاد الحلول للمسألة اليهوديَّة ومواجهة ظواهر اللَّاساميَّة في أوروبا، وقد كان ذلك قبل أن يكتب كتاب الدَّولة اليهوديَّة عام ١٨٩٦.

كانت أولى الشَّخصيات التي نادت بإقامة دولة يهودية في فلسطين الحاخام يهودا الكلعي (١٧٩٨ – ١٨٧٨) السَّفاردي الأصل، وهو حاخام الطائفة اليهودية في زيمون بالقرب من بلغراد في يوغسلافيا، والكلعي رغم أنَّه دعا إلى استيطان اليهود في فلسطين منذ بداية نشاطه، في أواخر الثلاثينيَّات من القرن التاسع عشر، ونشر سنة ١٨٣٩ كتاباً يشرح فيه آراءه، لكنه كان غارقاً في غيبيَّات الكاباláه؛ حيث توصل بناءً على حساباتٍ أجراها بموجب ذلك العلم إلى نتيجة مفادها أنَّ سنة ١٨٤٠ هي سنة خلاص اليهود. ولمَّا لم يحدث ما توقَّع غيَّرَ رأيه، مُعلِناً أنَّ الخلاص لا يمكن أن يتم فجأة ومرَّة واحدة؛ بل ينبغي العمل بجد في سبيله.[١٠]

وكأحد المبشِّرين بالحل الصهيوني للمسألة اليهوديَّة، وكرائدٍ من روَّاد الصهيونيَّة، ودُعاة «العودة» إلى صهيون و«أرض إسرائيل»، سبيلاً للتعجيل بخلاص الشعب اليهودي؛ نلاحظ أن الرُّؤى والتَّعاليم التي قدَّمها يهودا الكلعي كانت قد جمعت بين أفكارٍ قوميَّة ومسيانيَّة، وفي وقتٍ مبكِّرٍ من المراحل الأولى لانبثاق الصهيونيَّة؛ فنجده يقول:

«لقد أمر الله تبارك اسمه بأنْ تتم توبتنا عن طريق يقظتنا؛ لكي نزيد من قيمتنا لديه، وعندما يرى الله رغبتنا بالتوبة تمجيداً لاسمه، ولو تمَّ ذلك بحجم خُرم إبرة؛ سيرسل لنا نجدته ويفتح الباب على مصراعيْه، ثمَّ يزيدنا ويرسل إلينا المسيح الملك. وبعدها سنعود إلى صهيون الذي اتَّخذ منه إلهنا منزلاً له». يُعتبر الحاخام يهودا الكلعي، بسبب كتاباته؛ واحداً من روَّاد الفكر الصُّهيوني؛ فقد استطاع خلال فترة نشاطه التأثير على زملائه ومنهم «الحاخام تسفي هيرش كليشر» الذي أصدر سنة ١٨٦٢ كتاباً بالعبريَّة بعنوان «دريشات تسيون» أو «البحث عن صهيون» طوَّر فيه الآراء التي دعا إليها الكلعي. وفي السنة نفسها صدر كتاب آخر بالألمانية بعنوان «روما والقدس» لمؤلفه موشيه هس، يروج لآراء مماثلة. ويمثِّلُ المؤلَّفانِ التَّيَّارَيْنِ الرَّئيسين، من حيث الثقافة والبيئة الفكريَّة،

كانت أولى الشخصيات التي نادت بإقامة دولة يهودية في فلسطين الحاخام يهودا الكلعي (١٧٩٨ – ١٨٧٨) السفاردي الأصل، وهو حاخام الطائفة اليهودية في زيمون بالقرب من بلغراد في يوغسلافيا، والكلعي رغم أنه دعا إلى استيطان اليهود في فلسطين منذ بداية نشاطه، في أواخر الثلاثينيَّات من القرن التاسع عشر، ونشر سنة ١٨٣٩ كتاباً يشرح فيه آراءه، لكنه كان غارقاً في غيبيَّات الكابالاه؛ حيث توصل بناءٍ على حساباتٍ أجراها بموجب ذلك العلم إلى نتيجة مفادها أنَّ سنة ١٨٤٠ هي سنة خلاص اليهود.

اللذين كانا سائدين بين اليهود؛ فالحاخام كليشر من اليهود التقليديين، بينما ينتمي هِسْ إلى اليهود المثقفين «هَمَسْكيليم» ويُعتبر الكتابان من الكتب الصهيونيَّة الأساسيَّة، إذْ أصبحا كلّ في بيئته، فاتحة لتيَّارات فكرية صهيونيَّة، سرعان ما وجدت من يتبنَّاها، ويعمل على تطويرها، ثم ينتقل بها إلى حيز التنفيذ.

كان الحاخام تسفي هيرش كاليشر (١٧٩٥ – ١٨٧٤) حاخام الطَّائفة اليهوديَّة في مدينة تورين بألمانيا، خلال الأعوام الخمسين الأخيرة من حياته، من أوائل الصهيونيين المتدينين، الذي جاهروا بآرائهم وحاولوا العمل على تنفيذها.

بدأ كاليشر نشاطه منذ مطلع الثلاثينيات من القرن التاسع عشر؛ وفي عام ١٨٦٢ نشر كتابه «البحث عن صهيون» الذي يدعو فيه لعقد مؤتمر عام لوجهاء اليهود؛ بهدف تأسيس جمعية لاستيطان أرض إسرائيل، تكون مهمتها الرئيسيَّة تمويل عملية استيطان اليهود في فلسطين، وإقامة كيان لهم فيها. ويُشدد كاليشر، في دعوته هذه، على اقتفاءِ اليهود أثر الشعوب الأخرى. وعلينا ألَّا نخجل من أنفسنا؛ لأنَّنا نعمل على إحياء ذكرى آبائنا، وتمجيد إلهنا الَّذي اتَّخذ من صهيون مسكناً له ". لا تختلف كثيراً آراء الحاخام كاليشر – التي ينطلق منها لتقديم مقترحاته لحل المسألة اليهوديَّة، بواسطة توطين اليهود في فلسطين، وإقامة كيان لهم فيها -في منطلقاتها عن الآراء التي كان يحملها حاخامو عصره، أو الاجتهادات الدينيَّة التي توصَّلوا إليها، بشأن علاقة اليهود بأرض إسرائيل؛ فكاليشر يرى، مثل باقي الحاخامين أنَّ «العلاقة بين اليهود وأرض إسرائيل والتوراة، هي علاقة أزليَّة، لا يمكن فصمها».

كانت اجتهادات الحاخَامَيْن «كاليشر والكلعي» وآراؤُهما بمثابةِ مرحلة أولى لتيَّارٍ فكريٍ داخل اليهوديَّة، يستمد قوَّته من التعاليم الدِّينيَّة التَّقليديَّة، ويمزج بينها وبين الوسائل السياسيَّة الضَّروريَّة؛ لتحقيق ما يعتبرونه الفرائض المنصوص عليها في تلك التعاليم، من حيث علاقة اليهود بأرض إسرائيل وواجب الاستيطان فيها. وقد تبلور هذا التيار وازداد قوة، وعُرِفَ فيما بعد باسم الصهيونيَّة المتديِّنة، التي استمر مؤيِّدوها في إصدار الفتاوى الدِّينيَّة، من حينٍ لآخر عند الضرورة؛ بشكلٍ سهَّلَ على اليهود المتدينين التعامل مع الصهيونيين العلمانيين، في مساعيهم لإقامةِ دولة يهوديَّة في فلسطين، خلال كل فترات النشاط الصهيوني، بل وحَمَلَهُم على مُجاراتهم في كلِّ مجالات نشاطهم.

لم تَحْظَ آراء كاليشر والكلعي، على أيِّ حال، بتأييدٍ كاملٍ من قِبَلِ الحاخامين الصهيونيين الذين جاؤوا بعدهما، ولكنَّها كانت كافية لدفعِ كلٍّ منهم إلى عرض آرائه الخاصَّة؛ مِمَّا أسهم في تعميق الأسس الفكريَّة لنظرياتِ الصهيونيَّة المتديِّنة، ومن بين تلك الجماهير اليهودية المتدينة وتحديداً من روسيا، جاء معظم المهاجرين اليهود الذين قدموا إلى فلسطين خلال العشرين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر، وهم الذين أنشأوا المستوطنات اليهوديَّة التي أُقيمت في البلاد خلال تلك الفترة، واضعين بذلك أسس الاستيطان الصهيوني، ومُمهدين لنشاط الحركة الصهيونيَّة العالميَّة فيما بعد.

وفي الوقت الذي صدر فيه كتاب الحاخام كاليشر – البحث عن صهيون – كان موشيه هس (١٨١٢ – ١٨٧٥) يكتب الفصول الأخيرة من كتابه «روما والقدس» بالألمانيَّة، تحت تأثير انتصار حركة التحرير والوحدة في إيطاليا، والنظر إلى أوضاع اليهود في ضوء تلك الانتصارات، ومن هنا جاء عنوان الكتاب. ونُشِرَ هذا الكتاب سنة ١٨٦٢ أيضاً، بعد نشر كتاب كاليشر ببضعة أشهر، وبحسب «هس» استطاع اليهود الحفاظ على قوميَّتِهم بواسطة ديانتهم، وتوحيد الاثنتين بصورة غير قابلة للانفصام، مع الذِّكريات عن أرضِ آبائِهم، مُتَحَصِّنين وراءَ غايتهم العريقة، ورسالتهم الثقافيَّة والتَّاريخيَّة لتوحيد الإنسانيَّة باسم خالِقِهم الأزلي.

وعندما ينتقل لتقديم حلول للمسألة اليهوديَّة، يُعلِنُ هس

قام بينسكر بنشر آرائه في كراس باللغة الألمانية بعنوان " التحرير الذاتي" طبع في برلين سنة ١٨٨٣.
كان "التحرير الذاتي" أول منشور من نوعه يتصدى لطرح حلول جذرية للمسألة اليهودية، وسرعان ما أحتل مركز الصدارة بين المؤلفات الصهيونية الكلاسيكية، وحظي بردود فعل واسعة في الصحافة اليهودية في روسيا. وقد قام " آحاد هعام " بترجمة هذا الكراس إلى العبرية، بينما كتب هرتسل في مذكراته، بعد قراءته له، أنه لو اطلع عليه من قبل، لما كتب " دولة اليهود ".

أنَّ الشعوب الأوروبيَّة اعتبرت دوماً وجود اليهود بينها شيئاً شاذّاً؛ ولهذا فإنَّ كُره تلك الشُّعوب لهم سيبقى على حاله، مهما حاول اليهود تغيير أنفسهم، وأنَّهُ: «إذا كان صحيحاً بأنَّ تحرير اليهود في المنفى لا يتلاءَم مع القوميَّة اليهوديَّة؛ فإنَّه من الواجب التضحية بالأوَّل في سبيل الثَّاني»، واستناداً إلى هذه الفرضيات؛ يرى «هس» أنَّ الطريق العملي للوصول إلى حل المسألة اليهوديَّة، يكمن في إقامة دولة يهوديَّة. التي ستلتقي فيها كل الطَّبقات اليهوديَّة، الأرثوذكس والتَّقدُّميُّون، الأغنياء والفقراء، «ويعلن هس أنَّ الساعة قد دقَّت لإعادة الاستيطان على ضِفَّتَيِّ الأردن». وعلى كل حال، بقيت تعاليم الحاخَامَيْن الكلعي وكاليشر وأتباعهم من جهة، وآراء هس من جهةٍ أخرى كامنة في حالة ركود، خلال ما يقرب من عشرين سنة، إلى أن قُدِّرَ لها أنْ تُبعث ثانيةً، وتجد من يتبنَّاها ويضيف عليها ويطوِّرها، مع بداية الهجرة اليهوديَّة من روسيا، في مطلع الثَّمانينيَّات من القرن التاسع عشر.[١١]

وبذا نرى أنَّه قد رافق انبثاق الصهيونيَّة مجادلات ومناقشات جرت بين روَّادها ما قبل ثيودور هرتسل؛ وهو الأمر الذي سوف يستمر ما بعد المؤتمر الصهيوني الأول سنة ١٨٩٧ وابتداءً بمطلع القرن العشرين وحتى الأربعينيَّات منه؛ في إطار السعي إلى إقامة دولة قوميَّة تجمع شتات الشعب اليهودي كحلٍّ للمسألة اليهودية، ومواجهة ظواهر عداء السَّاميَّة التي سادت أوروبا منذ أواسط القرن التاسع عشر على نحوٍ خاص.[١٢]

وفي هذا السياق من الجدل الذي كان قائماً ما قبل هرتسل -والذي استمر فيما بعد وبقي يشكل قاعدة لما بدا من تنوُّع في الأطروحة الصهيونيَّة -سنأخذ مثالاً آخرا وأخيرا من المفكِّرين الأوائل ما قبل هرتسل، وهو الدُّكتور يهودا ليف بينسكر (١٨٢١ – ١٨٩١) مؤلِّف كرَّاس التَّحرير الذَّاتي، الذي قال هرتسل بخصوصه، بعد أنْ اطَّلع عليه: أنَّه لو كان اطَّلَع على كرَّاس التَّحرير الذَّاتي لبينسكر؛ لاكتفى بما ورد فيه من أفكار، ولَمَا أقدم على كتابة «دولة اليهود».

قام بينسكر بنشر آرائه في كراس باللغة الألمانية بعنوان «التحرير الذاتي» طُبع في برلين سنة ١٨٨٣.

كان «التحرير الذاتي» أول منشور من نوعه يتصدى لطرح حلول جذرية للمسألة اليهودية، وسرعان ما أحتل مركز الصدارة بين المؤلفات الصهيونية الكلاسيكية، وحظي بردود فعل واسعة في الصحافة اليهودية في روسيا. وقد قام «آحاد هعام» بترجمة هذا الكراس إلى العبرية، بينما كتب هرتسل في مذكراته، بعد قراءته له، أنه لو اطلع عليه من قبل، لما كتب «دولة اليهود».

يستهل بينكسر «التحرير الذاتي» بقوله إن المشكلة التي نجابهها تتلخص في «أن اليهود، في الحقيقة، عنصر متميز عن الشعوب التي يعيشون بينها، وغير قابل للذوبان في كيان أيِّ أمة، ولهذا لا تستطيع أي أمة أن تتحمله بسهولة. والمطلوب، إذن، إيجاد وسيلة يمكن بواسطتها تهيئة ذلك العنصر الانفصالي للتحالف مع تلك الشعوب، بطريقة تحل معها المسألة اليهودية إلى الأبد». وهذا لن يتم إلا عندما «تصبح المساواة بين اليهود وباقي الشعوب أمرا واقعا، وعندئذ فقط يمكن القول إن المسألة اليهودية قد حُلَّتْ».

أما أسباب هذا الوضع فتكمن، بحسب رأي بينكسر، في عدم وجود دولة لليهود، أو حكومة أو وكالة خاصة بهم، بحيث لم تتعامل الشعوب الأخرى أبداً مع أمة يهودية، وإنما مع يهود أفراد فقط، رغم أن الأمة اليهودية بقيت قائمة دائماً كأمَّة روحيَّة. وكان من نتيجة ذلك أن «سيطر الخوف من الروح اليهودية على الجنس البشري بأكمله، وسبب مرض كراهية اليهود». ولهذا «فإن كراهية اليهود هي أحد الأمراض النفسية، وبصفتها مرضاً نفسيا فإنها تنتقل بالإرث، وبما أنها تنتقل بالإرث منذ ألفي سنة فلا علاج لها». كذلك فإن تحرير اليهود، ومنحهم حقوقهم المدنية في دول عدة، كان تحريرا قانونيا،

وليس اجتماعياً، وإن كان ذلك التحرير قد مُنح بسبب تطورات نفسية لدى الشعوب التي أقرته، أو من خلال موقف مسؤول، فإنه ليس إلا بمثابة «هدية من أغنياء لشعب فقير ومسحوق». ويختم بينكسر عرضه لأوضاع اليهود في عصره معلنا: "خلاصة القول: بالنسبة للأحياء يُعتبر اليهودي ميتا، وللمواطنين-أجنبيا، وللسكان-متجولا، وللأغنياء-شحاذا، وللفقراء-غنيا مستغلا، وللمواطنين-لا بلاد له، وبالنسبة للجميع-مُنافساً مكروهاً".

ويستمر بينكسر، في عرضه لحلوله، فيشير إلى أن حركات الهجرة اليهودية من روسيا، التي ظهرت في البلد، بعد مذابح سنتي١٨٨١-١٨٨٢، قد تكون الخطوة الأولى على الطريق نحو بداية حل المسألة اليهودية، ويدعو زعماء تلك الحركات إلى العمل على توحيد صفوفهم، والبدء في تنفيذ المشاريع التي قدمها.

عاد بينكسر، بعد نشرة «التحرير الذاتي» إلى روسيا، حيث وجد نفسه يتزعم حركة هواة صهيون، سرا ثم علنا، بعد إجازة الحركة من قبل السلطات الروسية، حيث انتخب رئيسا للجنتها التنفيذية. واستمر بينكسر يحتفظ بمنصبه هذا، عدا فترة قصيرة، ويعمل جاهدا في خدمة تلك الحركة، حتى وفاته.[١٣]

في التحليل الأخير – وكمثالٍ من الأمثلة على جدليَّة التَّنَوُّع والتباين الذي رافق انبثاق الصهيونيَّة –كان حل هرتسل للمسألة اليهودية هو الهروب أو الخلاص في وطن... بالنسبة له، لم يكن معنيا بمدى المعاداة التي يمكن أن يكون عليها المسيحي، بل كان حقا يفكر أنه كلما ازدادت لا سامية أحد ما، كلما أصبح أكثر تقديرا لمزايا الخروج اليهودي من أوروبا !!.

من جهةٍ أخرى، وبالنسبة إلى آخرين ومنهم – برنارد لازار على سبيل المثال –كانت مسألة الإقليم ثانوية... كانت نتائج هذا الرأي هي، أنَّه ليس ضروريًّا النَّظر هنا وهناك بحثا عن عدد أكبر أو أقل من الحماة اللاساميين، وإنما كان يبحث عن رفاق درب تأمَّلَ أن يعثر عليهم بين الجماعات المضطهدة في أوروبا المعاصرة.

في آذار ١٨٩٩، قدم لازار استقالته من اللجنة القضائية، التابعة للمؤتمر الصهيوني، وبشكل أو بآخر، انسحب من المنظمة الصهيونية. كان لازار رافضا لأسلوب هرتسل الأوتوقراطي والاستعلائي. رأى كيف نسف هرتسل مناقشة ديمقراطية حول البنك القوي في المؤتمر الثاني، واعترض على صميم فكرة صندوق الاستعمار اليهودي. ولم يستطع تحمل منهاجية الدُّبلوماسية المتعالية التي تجاهلت حاجات اليهود الحقيقيين مقابل أولئك الذين سوف يتم تطبيعهم في فلسطين في وقت لاحق ما، كما لم يستطع أن يغفر ذلك الاستعداد لتجاهل الفظائع التي ارتكبت ضد اليهود الروس والأرمن من أجل تسهيل المفاوضات مع المنفذين، وهما القيصر الروسي والسلطان العثماني. غير أنه في الأساس يمكن عزو ذلك الصدع إلى ما يمكن تسميته بالتفرُّع – داخل إطار أطروحة الصهيونيَّة بوجه عام.

فقد انشطر لازار – على سبيل المثال –نحو قومية ثورية شكلت أساسا لمشروع إنساني عالمي، بينما تبنى هرتسل استيطانية برجوازية ترمي إلى خلق دولة يهودية في إقليم مأهول بسكان أصليين غير بيض. في شباط وآذار من العام١٨٩٩، كتب لازار إلى هرتسل سلسلة رسائل وضعت نهاية علاقته مع المؤسسة الصهيونية الوليدة وزعيمها. في إحدى تلك الرسائل، لم يترك لازار مجالا للشك في أين تقع مسؤولية الصدع الذي حدث؛ فكتب مخاطباً هرتسل:

«أنت برجوازي في تفكيرك، برجوازي في مشاعرك، برجوازي في آرائك، وبرجوازي في نظرتك للمجتمع. ولذلك فأنت تريد أن تقود الناس، شعبنا الفقير والتعيس، الطبقة العامة... أن تتصرف خارج نطاقهم ومن فوقهم، أنت تريد أن يتبعوك مثل قطيع غنم. مثل كل الحكومات، أنت تريد إخفاء الحقيقة، تريد أن تكون أنت الحكومة الخاصة التي يتلخص واجبها الرئيس في إخفاء العار القومي. ولكنني أريد أن أفضح ذلك، لكي يرى كل فرد من هو أيُّوب المسكين الجالس فوق كومة الرَّوث الخاصة به، والذي يحك قروحه بقطعة زجاج مكسورة».

ثمَّ يُتابع: «حين يقول اليهودي اليوم أنا قومي فهو لا يعني تماما وبشكل خاص أنا رجل يريد دولة يهودية في فلسطين ويحلم بالاستيلاء على القدس. إنه يقول: أريد أن أكون رجلا كامل الحرية ولي مكان تحت الشمس، ولي الحق بأن أعامل كإنسان لديه كرامة. أريد ألا أتعرض للاضطهاد، ألا أتعرض للانتهاك، أريد ألا أتعرض للاحتقار المكدَّس فوقي. ففي أوقات معينة من التاريخ، يكون معنى القومية لبعض الجماعات هو الحرية».[١٤]

بالإجمال، فقد قامت مجمل أطروحة الصُّهيونيَّة وما رافقها من مجادلات على قاعدة الأسطورة التأسيسيَّة المستندة إلى: نفي المنفى، والعودة إلى التاريخ، والعودة إلى أرض إسرائيل – فلسطين،[١٥] فنفي المَنْفى يقتضي تجاهل تاريخ المنفى والشتات؛ على اعتبار أنَّه مجرد ذاكرة تجربة مشوَّهة، لا تصلح ولا يصح اعتبارها تجربةً تاريخيَّةً للشعب اليهودي، بل على العكس من ذلك ينبغي اعتبار تاريخ المنفى باعثاً على المرارة والألم مع الاحتفاظ بصورته الوجدانيَّة كواقع من الاضِّطهاد والنَّبذ والحرمان وضياع هويَّة الشعب القوميَّة في مرحلة الشتات أو الدّياسبورا اليهوديَّة الممتدَّة إلى عشرات القرون

لقد قامت الأسطورة التأسيسيَّة في مناخ ما عرف بالمسألة اليهوديَّة وضرورة إيجاد حل صهيوني لها ضمن توليفة قوميَّة قائمة على أساس يوتوبيا دينيَّة مسيانيَّة، كإحدى روافع ودوافع الصهيونيَّة ومشروعها وبما له علاقةٍ وثيقة بمفاهيم مسيانيَّة مسيحيَّة بروتستنتيَّة؛ قامت على أساس التفسير الحرفي للعهد القديم، حيث تبنتها ولفتت الانتباه إليها البروتستنتيَّة المسيحيَّة في القرنين الثامن والتاسع عشر.

الماضية «وبمجيء القرن التَّاسع عشر كان ذلك الشَّتات يتوزَّع في مساحةٍ تمتد من اليمن وحتَّى نيويورك»– بحسبِ تعبيرٍ لإسرائيل شاحاك في كتابه «الديانة اليهوديَّة وتاريخ اليهود، وطأة ٣٠٠٠عام».

أمَّا العودة إلى التَّاريخ؛ فتعني العودة إلى المفهوم التَّوراتي للتاريخ كمكوِّنٍ من مكوِّناتِ الشعب اليهودي ووجدانه، باعتبار أنَّ تمسُّك اليهودي بيهوديَّته هو العامل الذي أسهم في بقاء هوية الشعب القوميَّة ومنعها من الاندماج والذَّوبان في المجتمعات الأخرى المغايرة، وفق المفهوم الصُّهيوني القائل: بأنَّه لا يمكن فصل القوميَّة عن الدِّين ولا الدِّين عن القوميَّة باعتبارهما شيئاً واحداً بالنِّسبة لليهود، والعنصر الأساسي الأوَّل من عناصر تشكُّل القوميَّة اليهوديَّة والمحافظة عليها.

أمَّا العودة إلى أرض الشعب اليهودي – أرض إسرائيل –(وفق التعبيرات الصهيونية) فتعني الهجرة إلى فلسطين والاستيطان فيها؛ كون ذلك عنصراً أساسيًّا ثانياً من عناصر تشكل القوميَّة وبلورتها؛ فالقوميَّة كهويَّة جامعة لليهود وحتَّى يتم بلورتها كواقع موضوعي لا بد لها من العامل التُّرابي، بمعنى العودة إلى وطن الشعب اليهودي الأصلي، كوعد إلهي وكشرط من شروط التعجيل بالخلاص.

لقد قامت الأسطورة التأسيسيَّة في مناخ ما عرف بالمسألة اليهوديَّة وضرورة إيجاد حل صهيوني لها ضمن توليفة قوميَّة قائمة على أساس يوتوبيا دينيَّة مسيانيَّة، كإحدى روافع ودوافع الصهيونيَّة ومشروعها وبما له علاقةً وثيقة بمفاهيم مسيانيَّة مسيحيَّة بروتستنتيَّة؛ قامت على أساس التفسير الحرفي للعهد القديم، حيث تبنتها ولفتت الانتباه إليها البروتستنتيَّة المسيحيَّة في القرنين الثامن والتاسع عشر؛ وحيث تحالفت كل من الصهيونيَّة والبروتستنتيَّة المسيحيَّة المؤمنة بتلك الأفكار في سبيل التمهيد للخلاص ضمن مفهوم وعلى قاعدة ضرورة التَّعجيل بعودة الشعب اليهودي إلى أرضه الموعودة لاهوتيًّاً كشرط من شروط تحقق الخلاص الإلهي بعودة المسيح في نهاية التَّاريخ. وتُمثِّلُ هذه الرُّؤى الأرثوذكسيَّة اليهوديَّة والبروتستنتيَّة المسيانيَّة بالذَّات جذراً من جذور الفكر اليميني الصهيوني المؤثِّر حالياً في كلٍّ من إسرائيل والولايات المتحدة على وجه الخصوص.

وتحت تلك الأسطورة المُؤسِّسَة انبثقت الكثير من الرُّؤى والأفكار التي أسست لظواهر يمينيَّة أكثر تطرُّفاً، ومنها ما قدَّمه جابوتنسكي، حيث أسست أفكاره نظرياً ومنهجيًّاً سلسلة من التَّفرُّعات الآيديولوجيَّة والحزبيَّة اليمينيَّة.

وقد ولد زئيف فلاديمير جابوتنسكي عام ١٨٨٠ في «مدينة أوديسا-على البحر الأسود» بروسيا ويُعَدُّ جابوتنسكي مؤسس وزعيم ما اصطلح المؤرخون اليهود على تسميته بـ «الحركة التصحيحية الصهيونية».

وتعرف هذه الحركة أيضاً بـ «التنقيحيَّة»، التي ظهرت داخل المنظمة الصهيونية عام ١٩٢٣ بهدف تصحيح السياسة الصهيونية، وهذا التيار أساساً من شرق أوروبا، ونادى برنامجها بإنشاء دولة صهيونية على ضفتي نهر الأردن ورفع القيود عن الهجرة الصهيونية إلى فلسطين، ومصادرة جميع الأراضي المزروعة والعامة في فلسطين، وتأجيل الصراع الطبقي، وسحق التمرد العربي دون حاجة للجوء إلى بريطانيا بشكل مباشر – ولكن في نفس الوقت الاعتماد على التحالف معها في إمضاء المشروع الصهيوني - وإنشاء وحدات عسكرية، وفي عام ١٩٣٥ انفصل التصحيحيُّون عن المنظمة الأم وأسسوا «المنظمة الصهيونية الجديدة»، ولعبت المنظمة دوراً مهما في تأسيس المنظمات العسكرية.

انقسمت الحركة التصحيحية على نفسها في المؤتمر الصهيوني الثامن عشر الذي عقد في براغ عام ١٩٣٣، وخرج الجناح الديمقراطي منها، ولهذا شهد المؤتمر التاسع عشر الذي عقد في لوسيرن في سويسرا سنة ١٩٣٥ غياب التصحيحيين عن المنظمة الصهيونية الأم لكي يشكلوا «المنظمة الصهيونية الجديدة»، وقرر المؤتمر إعادة وايزمان إلى رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية.

لقد كان الغرض الأساس للحركة الصهيونية بصفة عامة

ولم يمض وقت طويل حتى تولّى جابوتنسكي قيادة الوحدة رقم ٣٨ في الجيش البريطاني، وكان ذلك في عام ١٩١٧ ورُقي إلى رتبة ليفتينانت، وكان من أوائل الجنود الذين عبروا الأردن. ولما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها دعا إلى الاستمرار في التجنيد للكتائب العسكرية بحجة حماية المستوطنات في فلسطين، ولهذا اصطدم مع زعامة الحركة الصهيونية وعلى رأسهم حاييم وايزمان.

السعي الدائم والمستمر لجمع أكبر عدد من اليهود في العالم، وتجميعهم في فلسطين لتتم عملية انقلاب ديمقراطي لإحلال اليهود محل أهل البلاد، فالهجرة اليهودية إلى فلسطين كان لها الجهد الأكبر، والأهم في عمل الصهيونية العالمية، وقد رُصِدَ لها القدر الأكبر من الأقوال، بل كانت الهجرة هي المحور الأساس الذي تدور حوله المؤتمرات الصهيونية، وهذا ما ركَّزَتْ عليه الصهيونيَّة التصحيحيَّة بالذَات أكثر من أيِّ شيءٍ آخر-دولة ذات أغلبيَّة يهوديَّة كاسحة.

درس جابوتنسكي الحقوق في جامعات سويسرا وإيطاليا وكانت بداياته في العمل العام في الكتابة الصحافية لبعض الصحف الروسية، وظهرت عليه علامات التقرب من الصهيونية في أعقاب بعض الأعمال المضادة لليهود في أوديسا – مدينة روسية على البحر الأسود -عام ١٩٠٣، فأخذ ينادي بضرورة محاربة التوجهات اللَّاسامية في روسيا خاصة وفي أوروبا عامة.

وتوصل جابوتنسكي إلى قناعة بأن مصير الصهيونية مرتبط إلى حد كبير بمسألة «انتزاع فلسطين من أيدي الأتراك»، وأنه من الضروري المساهمة في المجهود الحربي لتحقيق هذه الغاية إلى جانب الحلفاء خلال الحرب العالمية الأولى.

ولم يمض وقت طويل حتى تولَّى جابوتنسكي قيادة الوحدة رقم ٣٨ في الجيش البريطاني، وكان ذلك في عام ١٩١٧ ورُقي إلى رتبة ليفتينانت، وكان من أوائل الجنود الذين عبروا الأردن. ولمَّا وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها دعا إلى الاستمرار في التجنيد للكتائب العسكرية بحجة حماية المستوطنات في فلسطين، ولهذا اصطدم مع زعامة الحركة الصهيونية وعلى رأسهم حاييم وايزمان.

واعتبر جابوتنسكي أن توجُّه الصهيونية ليِّن ومرن أكثر من اللازم، وألقي القبض عليه إثر قيامه بعمليات اعتداء على فلسطينيين في نيسان ١٩٢٠ في القدس، ضمن سلسلة العمليات الإرهابية التي نظمتها الهغناه، وحُكم عليه بالسجن مدة خمسة عشر عاماً مع الأشغال الشاقة في سجن عكا.

وفي عام ١٩٢٠ أصدرت حكومة الانتداب البريطانية في فلسطين حكماً بالسجن ١٥ عاماً على جابوتنسكي لانخراطه في القتال ضدها، وكان قد شكَّل عصابة الألوية اليهودية المسلحة لقتال العرب في فلسطين عام ١٩١٥.

وقد أثار الحكم عليه ضجة واسعة في المستوطنات وخارج فلسطين ما دفع بعض القيادات الصهيونية إلى وضعه على رأس قائمة المرشحين لحزب «أحدوت هعفودا»، استعداداً لانتخابات جمعية المندوبين الأولى، ولما أُفرج عنه من السجن في صيف ١٩٢٠ إثر نيله عفواً عاماً تقرب من وايزمان وضُمّ إلى الإدارة الصهيونية العامة، وكان من بين الموافقين على التنازل عن المطالبة بالأردن، وهكذا قبل «الكتاب الأبيض» الذي أصدره تشرتشل عام ١٩٢٢.

وبعد إطلاق سراحه في أيلول عام ١٩٢١ من سجن عكا، عاد إلى لندن، وفي العام نفسه، انْتُخِبَ في اللجنة التنفيذية للحركة الصهيونية، لكنه استقال عام ١٩٢٣ احتجاجاً على سياسات المفوض الأعلى هربرت صموئيل، داعياً إلى سياسة أكثر جذرية لإجبار البريطانيين على تنفيذ وعودهم في تحقيق مطالب الصهاينة بإقامة «وطن قومي لليهود في فلسطين». ولكن تقارب جابوتنسكي مع وايزمان لم يدم فترة طويلة، إذ إنه قام عام ١٩٢٣ بالانسحاب من الإدارة الصهيونية العامة وأعلن عن تأسيس حركة (بيتار) وأصبح رئيسا لها.

تبنى جابوتنسكي خط هرتسل في الفكر الصهيوني الداعي إلى تحضير الظروف السياسية لكل عملية استيطانية، وأخذ ينادي إلى توضيح صريح للهدف الصهيوني، وتبنى أيضاً شعار (ضفتي الأردن) ما أثار غضب حكومة الانتداب البريطانية وما حدا بسلطات الانتداب إلى منعه من دخول فلسطين إلى أجل غير مسمى عام ١٩٣٠.

وقد واجه جابوتنسكي الحركة العمَّالية التي اتهمها بأنها حجر عثرة أمام تحقيق الفكر الصهيوني، أما الحركة العمَّالية فوجهت إليه تهماً شديدة بأنه ديماغوجي وفاشي وعدو للعمال، وساءت العلاقات بينه وبين الحركة العمالية في مطلع الثلاثينيات وبالأخص في أعقاب مقتل اورلوزروف عام ١٩٣٣.

جرى تقارب بينه وبين بن غوريون؛ تمخَّض عن اتفاق بينهما عام ١٩٣٤، ولكن الهستدروت العامة رفضت المصادقة على هذا الاتفاق، ما أدَّى إلى عودة تأزم العلاقات بينه وبين الحركة العمالية وقيادتها السياسية.

أصدرت اللجنة التنفيذية الصهيونية أمراً قضى بمنع أي عمل مستقل للأحزاب ضمن المنظمة الصهيونية، ما دفع جابوتنسكي إلى الانسحاب من المنظمة الصهيونية، وإقامة المنظمة الصهيونية الجديدة، وتولى رئاستها وحاول من خلال هذه المنظمة الجديدة العمل ضد فكرة تقسيم فلسطين إلى دولتين، وشرع في إقامة علاقات مع حكومات أوروبية مثل بولندا من أجل تشجيع عمليات التخلص من اليهود فيها بهدف تقوية وتعميق هجرتهم إلى فلسطين.

وكانت عصابة «الأرغون» التي تأسست عام ١٩٣٧ وارتكبت أبشع المجازر بحق الفلسطينيين ذراعاً عسكرياً لحركته. توفي عام ١٩٤٠ في نيويورك، ونقل رفاته إلى فلسطين عام ١٩٦٤ ويعتبر من رموز التطرف في الحركة الصهيونية.

وكان مخططه يشمل عمليات تهجير منظمة من الدول الأوروبية الشرقية إلى فلسطين، ووضع رقماً – ينبغي الوصول إليه من خلال موجات الهجرة –وهو مليون ونصف المليون يهودي، مهاجر إلى فلسطين. كان جابوتنسكي من الدَّاعين والمشجعين لتنفيذ عمليات هجرة غير شرعية لليهود نحو فلسطين ابتداء من العام ١٩٣٣ ورغم أنه نادى التنظيمات العسكرية الخاضعة له أو المؤيدة لفكره إلى عدم مواجهة القوات البريطانية أثناء اندلاع الثورة الفلسطينية، إلَّا أنَّه عاد ودعا عصابة (الإيتسل) إلى تنفيذ عمليات إرهابية وتخريبية ضد مواقع ومؤسسات بريطانية.

نادى جابوتنسكي بإقامة جيش عبري داخل الجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية، بهدف العمل المشترك في مواجهة النازيين وما يقومون به ضد اليهود في المانيا، ومناطق أخرى في أوروبا.

وأنشأ عام ١٩٢٥ «منظمة الإحياء الصهيوني» كبديل سياسي وأيديولوجي عن المنظمة الصهيونية العالمية التي كان يرأسها حاييم وايزمان.

وبعد فشله في السيطرة على الحركة الصهيونية، أنشأ عام ١٩٣٥ «المنظمة الصهيونية الجديدة»، وانتقل للاستيطان في فلسطين، حيث أصبح رئيساً لتحرير صحيفة «دوأر هيوم»(بريد اليوم)، إلا أن السلطات البريطانية انتهزت سفره للخارج ومنعته من العودة إلى فلسطين.

وكانت عصابة «الأرغون» التي تأسست عام ١٩٣٧ وارتكبت أبشع المجازر بحق الفلسطينيين ذراعاً عسكرياً لحركته، توفي عام ١٩٤٠ في نيويورك، ونقل رفاته إلى فلسطين عام ١٩٦٤. ويعتبر من رموز التطرف في الحركة الصهيونية، وهو الأب الروحي لليمين اليهودي خصوصاً الليكود.

وفي محاضرة ألقاها بتاريخ ٢٥ أيار عام ١٩٣٣ في فيينا، قدّم جابوتنسكي، خطة خماسية لفلسطين، تلحظ في تفاصيلها حرباً عربية أوروبية قادمة يقف فيها اليهود إلى جانب أوروبا ضد العرب.

أسس جابوتنسكي اتحاد الإصلاحيين الصهاينة والحركة الشبابية التابعة لها، حركة بريت ترومبلدور سنة ١٩٢٥ كمشروع مضاد للصهيونية العادية وقد سعوا في حينه إلى «ضم شرقي الأردن والبادية السورية إلى فلسطين».

رفض جابوتنسكي قرار تقسيم فلسطين واقترح إقامة «جدار حديدي» وقد كتب سنة ١٩٢٣:

«إذا أراد المرء أن يستوطن بلداً يقطنه شعب، فعليه أن يجد من ينفذ له هذا الأمر، فإذا لم تكن هناك قوة مسلحة تقضي على كل حركة تعارض الاستيطان أو تمنعه أو تعرضه للخطر، فسيكون الاستيطان غير ممكن. إنَّ الصهيونية مشروع استعماري استيطاني يرتبط تقدمه وتراجعه بقوة سلاحه، صحيح أنّه من المهم أن نتكلم العبرية، ولكن الأهم بكل أسف، أن نتقن استخدام السلاح، وإلاّ فلا استيطان».

وهكذا راح جابوتنسكي برجاله ذوي القمصان البنية، يحطم المنظمات الصهيونية الكبيرة، ففي سنة ١٩٣٢ أمر بعملية ضد حركة النقابات الصهيونية الهستدروت، التي كان يسميها «ورماً سرطانياً كبيراً» في جسد الجالية اليهودية في فلسطين، «يزداد خطراً يوماً بعد يوم وسنشن الحرب على هذا الورم الخبيث حتى نقضي عليه «.

أمّا دافيد بن غوريون، أحد مؤسسي حزب العمل الاجتماعي الديمقراطي الإسرائيلي والذي أصبح لاحقاً أحد أهم السَّاسة الإسرائيليين، فقد حذّر من جابوتنسكي في حفل شعبي كبير سنة ١٩٣٣, وحذّر من خطره على المسيرة اليهودية الصهيونية، وفي ١٥ أيار ١٩٣٣ قال بن غوريون في مناسبة احتفالية أخرى «إن علينا أن نعلن الحرب على – جابوتنسكي – ونحن نقترب سريعاً من حرب حياة أو موت». وقد بلغ الخصام أشدّه بين بن غوريون وجابوتنسكي في ١٦ حزيران ١٩٣٣ حينما اغتال أبراهام ستافسكي، أحد عملاء الحزب الإصلاحي، رئيس المكتب السياسي للسلطة اليهودية وحليف بن غوريون، حاييم أرلوزروف. ويمكن القول إن حزب الليكود قد خرج من رحم هذه الحركة التي أسسها جابوتنسكي، والتي تعتبر الشعب اليهودي شعباً يقوم على خصائص عرقية وقد عقد اتفاقاً مع

شكّلت مرحلة ما بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧ وما جاءت به من نتائج جيو-سياسيَّة بدايةً تأسيسيَّة لحضور اليمين في السياسات الإسرائيليَّة، وازداد حضوره في المشهدين السياسي والاجتماعي على ضوء نتائج انتخابات ١٩٧٦، وازدادت تأثير مفاهيم اليهوديَّة الأرثوذكسيَّة أو الكلاسيكيَّة على المستوى الاجتماعي والثقافي والسياسي وبالتدريج كنتيجة من نتائج الانقلاب السياسي.

الرَّب، كنوع من الملكية العقارية لأرض إسرائيل مع حقهم بطرد العرب الفلسطينيين من هذه الأرض.

ولذا نجد أنَّ تيارات اليمين المتأثِّرة بأفكار جابوتنسكي تسعى إلى «الحصول على أوسع ما يمكن من الأراضي». وتشدد على مطالب جابوتنسكي المتعالية، بأن تضم إسرائيل الكبرى كل فلسطين، بما في ذلك شرقي الأردن والبادية السورية، كما ورد ذكر ذلك في صحيفة «الجبهة القومية» سنة ١٩٣١.

ولا تزال تعليمات جابوتنسكي، مؤسس «الصهيونية الإصلاحية»، تمثل إيديولوجيا كتلة الليكود. وقد سار بنيامين نتنياهو -إبان رئاسته للحكومة -في سياسة الاستيطان على خطى والده المؤرخ والمتشدد، بنتسيون نتنياهو، الذي أجرى دراسات واسعة حول اليهود في إسبانيا في القرن الخامس عشر وكان من المقربين إلى جابوتنسكي.

وقد توفي جابوتنسكي في شباط ١٩٤٠ في الولايات المتحدة ونقل رفاته إلى القدس العام ١٩٦٤ بعد سنوات طويلة من معارضة بن غوريون لذلك.

أجاد جابوتنسكي عدة لغات وقام بترجمة بعض الأعمال الأدبية، من بينها بعض أشعار بياليك إلى اللغة الروسية، وترجم أيضاً فصولاً من الكوميديا الإلهية لدانتي الإليجيري إلى العبرية. يعتبر جابوتنسكي الأب الروحي والسياسي لحركة حيروت التي تزعمها مناحيم بيغين، وتركت أفكاره أثراً بالغاً عليه وعلى كثيرين من أتباعه.

مرَّتْ ثمانية عقود من الزَّمن، فصلت بين تأسيس فلاديمير جابوتنسكي مؤسس (اتحاد الصهيونيين الإصلاحيين) لـ «حركة بيتار»، وبين تشييد مستوطنة «بيتار عليت» التي تعتبر ثاني أكبر مستعمرة على أراضي الضفة الغربية باعتبارها ملحقاً لمخطط «ايهود أولمرت»، وصورة طبق الأصل لمستوطنة «معاليه أدوميم» الملحق الآخر في خارطة القدس الكبرى.[١٦]

((٢)) - تطبيقات مفهوم الجدار الحديدي؛ النتائج السياسيَّة والاستنتاجات المتصلة بالمثال الواقعي للصهيونيَّة:

شكَّلت مرحلة ما بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧ وما جاءَت به من نتائج جيو-سياسيَّة بدايةً تأسيسيَّة لحضور اليمين في السياسات الإسرائيليَّة، وازداد حضوره في المشهدين السياسي والاجتماعي على ضوء نتائج انتخابات ١٩٧٦، وازدادت تأثير مفاهيم اليهوديَّة الأرثوذكسيَّة أو الكلاسيكيَّة على المستوى الاجتماعي والثقافي والسياسي وبالتَّدريج كنتيجة من نتائج الانقلاب السياسي ابتداءً بشهر أيَّار عام ١٩٧٧– تاريخ تولِّي مناحم بيغين رئاسة الحكومة – وما رافق ذلك من تراجع لقوى وأحزاب اليسار التقليدي.

لقد أدَّى ذلك التحالف بين اليمين القومي اللّيبرالي الصهيوني بقيادة الليكود منذ منتصف سبعينيَّات القرن الماضي وبين الأصوليَّة الدِّينيَّة إلى إزاحة منهجيَّة متواصلة نحو دينيَّة أكثرَ ويمينيَّة أكثرَ على مستوى المجتمع والدولة ومؤسساتها؛ وحيث مثَّلَ ذلك سياقاً لتطورات منهجيَّة متلاحقة أسهمت في ولادةِ مناخ سياسيٍّ مُختلفٍ في إسرائيل والمنطقة؛ فقد أدَّى ذلك إلى تغيُّرٍ بيئة العلاقات الدَّاخليَّة في المجتمع الإسرائيلي وتغيُّر موقع مراكز القوى وهو ما يمكن رصده وتصنيفه ضمن النتائج البنيويَّة الدَّاخليَّة الإسرائيليَّة، هذا من جانب، ولجهة صيرورة العلاقات الإشكاليَّة بين الفلسطينيين والإسرائيليين – سواءً من هم داخل أراضي عام ٤٨ أو من هم في المناطق المحتلة عام ٦٧- وطبيعة السياسات الإسرائيليَّة العامَّة والإقليميَّة ومستقبل القضية الفلسطينيَّة، وهو ما يمكن تصنيفه ضمن النتائج السياسيَّة من جانبٍ آخر.

فقد باتت إسرائيل اليوم أكثر دينيَّة ويهوديَّة – من حيث الإفصاح عن نفسها - من السَّابق إذا ما قورِنتْ بمرحلة هيمنة كتلة اليسار والوسط في المرحلة الممتدَّة من عام ١٩٤٨حتَّى عام ١٩٧٧؛ وينسحب السِّياق عمليَّاً وليس تجريديَّاً فحسب،

إلى ما هو أبعد من ذلك، لجهة المضي في تكريس مفهوم إسرائيل كدولة يهوديَّة قوميَّة خالصة خاصَّة بالشَّعب اليهودي حصراً؛ وحيث يبقى تعريف مفهوم الشَّعب اليهودي ورسم حدود ومعالم هويَّته القوميَّة أحجية من الأحجيات المفعمة باللَّاهوت والتي تحرص الصهيونيَّة بشكلٍ عام على التمسك بها كمتلازمَة من متلازمات مشروعها القومي، وتَعْرِضُها الصهيونيَّة الأرثوذكسيَّة والقوميَّة الدِّينيَّة أمام اليهود وأمام العالم كأحجيَة مقدَّسة مفعمة باليوتوبيا الدِّينيَّة المسيانيَّة، وبما يدفع بالمزيد من عوامل التَّفجُّر وغياب احتمالات الوصول إلى تسوياتٍ سياسيَّة شاملة في المنطقة من أيِّ نوع؛ وهذا بطبيعة الحال واقعٌ يرتبط بدرجةٍ كبيرة بالنتائج السياسية لهيمنة اليمين.

كان تأثير الحرب – حرب حزيران عام ٦٧ -داخليَّاً بعيد المدى، وأثَّرَ على تفكير إسرائيل وسياستها على مدار العقود الثلاثة اللاحقة، ولا تزال نتائج تلك الحرب بعيدة الأثر على مفاوضات السلام وعلى صيغة التعامل الإسرائيلي مع الفلسطينيين.

وإذا عدنا إلى الوراء، إلى عام ١٩٣١، لوجدنا أنَّ جابوتنسكي وأتباعه قدَّموا اقتراحاً إلى المؤتمر الصهيوني السَّابع، يشترط قيام الدولة اليهوديَّة على ضفتي نهر الأردن، وقد رفضت القيادة الصهيونيَّة ذلك بشدَّة؛ لأنَّ هدفهم كان التمسك بما يمكن تحقيقه، وعدم تعامل الحركة مع أهدافٍ غير قابلة للتنفيذ، وجرى جدال مشابه قبل قبول مشروع تقسيم فلسطين، وفي هذه المرة أيضا، دعم الصهيونيون البراغماتيون(الواقعيون)، بقيادة بن غوريون، ووايزمان، مشروع التقسيم وفازوا بأغلبية ساحقة، وبفضل هذا الموقف أعلن عن قيام الدولة. بعد انضمام الأردن إلى مصر في حرب الأيام الستة، فرضت إسرائيل سيطرتها على الضفة الغربية بأكملها. فبعث هذا الوضع الجديد أتباع جابوتنسكي، وقاد الحملة، اليمينيون المتطرفون في إسرائيل وفي مقدمتهم حزب الحيروت برئاسة مناحم بيغن. فالكثير من مواقع الضفة الغربية، له دلالة توراتية دينية، مثل الخليل ومدفن الآباء. من هنا يدعم اليهود المتدينون التيارات الوطنية العلمانية في التمسك بالضفة الغربية وعدم التفريط بها. الكثيرون أقاموا المستوطنات في هذه المناطق وشكلوا مع العلمانيين المتضامنين معهم نواة الاستيطان. ومع ذلك، امتنعت الحكومات الإسرائيلية وبما في ذلك الحكومات التي ترأسها بيغن، إسحق شمير، ونتنياهو، عن ضم الضفة الغربية، بغية عدم صد الجهود السلمية. لقد أدركوا أن المسألة، ليست مجرد الأرض، إنما هو أيضا السكان الفلسطينيون الذين يعيشون على هذه الأرض، والذين تضاعف عددهم خلال ثلاثة عقود.

إذ لا بد من أن يكون أمرهم جزءا من أي تسوية متفق عليها. نتيجة لذلك، فإن الإجماع الذي كان سائدا حول فكرة السلام مع الأمن بين عام ١٩٤٨و١٩٧٦ قد تضعضع، ليحدث انقساما ً حادا في المجتمع الإسرائيلي. وهكذا أصبحت مفاهيم مثل، حدود استراتيجية، وحدود قابلة للدفاع عنها، والعمق الاستراتيجي، وأرض الآباء والأجداد، مدار جدل محلي ملتهب.[١٧]

وبمعنىً ما، إنَّ التَّمعُن في حاصل نتائج الصهيونيَّة سياسيَّاً وموضوعيَّاً حتَّى الآن، والماثلة أمامنا في المشهد الإسرائيلي يمكنها أن تُجمل وتحسم كثيراً من المجادلات الطويلة بخصوص مؤدَّيات أفكار الصهيونيَّة وتياراتها التقليديَّة المعروفة. لكن ينبغي ملاحظة أنَّ مختلف تلك التيارات وبالمجمل كانت انبثقت على أساس نقاط ارتكازيَّة متجانسة، كانت منسجمة من حيث المضمون الأساسي ومن حيث اتِّجاهاتها المركزيَّة أو لجهة المجادلات المحوريَّة التي دارت فيما بينها على ذات القاعدة التأسيسيَّة الأسطوريَّة للصهيونيَّةً، وهي نفي المنفى، والعودة إلى الوطن اليهودي، والعودة إلى التَّاريخ، إضافةً إلى الإجماع على تعريف الدِّين بالقوميَّة وتعريف القوميَّة بالدِّين وكأنَّهما شيءٌ واحد، والاتفاق على إبقاءِ الصُّورة الانشطاريَّة – بطبيعتها الظَّاهريَّة – متماسكة الأجزاء داخل إطار الصهيونيَّة بواسطة خطوط ما يسمَّى بالإجماع القومي، تلك الصورة الانشطاريَّة التي تجمع بين موزاييك اليمين واليسار والمتدينين والعلمانيين والمُثَبَّتَة داخل إطار القلق من اختلال الميزان الدِّيمُغرافي والحفاظ على مزايا التوسع الإقليمي بمنطق الاحتلال والاستيطان، والمعلَّقة الآن – على ما يبدو – على جدار جابوتنسكي الحديدي.

وحتَّى بالعودة إلى الماضي نجد أنَّ رؤية بن – غوريون لتحقيق المشروع الصهيوني لم تكن تختلف في جوهرها عن مجاز «الجدار الحديدي» لجابوتنسكي الذي تحدَّث عنه في مقالته المعنونة بنفس الاسم في العام ١٩٢٣، والتي أقرَّتْ بالمقاومة الحقيقيَّة للسكَّان المحليين لمخاطر تجريدهم من ممتلكاتهم، والحل المُماثل المُتمثِّل في نصب جدار حديدي – وبتعبير بن غوريون–حكومة في فلسطين لا يكون فيها أي عربي. يكمن اختلاف بن غوريون عن جابوتنسكي في رايه القائل بعدم الحكمة في أنْ تصف الواقع في فلسطين على أنَّه نزاع بين حركة قوميَّة استيطانيَّة مقابل حركة محليَّة، إلى حين يكون الييشوف قد أصبح بنياناً صلباً غير قابل للانهيار. فقد كانت الصيغة الطبقيَّة مجرَّد ذريعة منطقيَّة للإفشال، وقد صيغَتْ بلغة مناسبة تماما لمكانة بن غوريون المؤسسية كسكرتير عام للهستدروت. فمثل هذه اللغة كانت بالنسبة لبن

غوريون، ذرائعية إلى درجة سرعان ما قذف بها بعيدا كحبة بطاطا ساخنة. وحيث تبيِّن مقالة أرلوزورف لعام ١٩٢٧، التي دشن فيها مساهمته في المناقشات الخاصة بالتنظيم المشترك بطريقة مبتكرة، أنَّ القياديين في الصهيونيَّة العمَّاليَّة اكتسبوا وعي المستوطن الأبيض.[١٨]

تدفع النتائج الموضوعيَّة والتطبيقيَّة لأمثولة إسرائيل ما بعد مرحلة هيمنة اليمين؛ إلى استنتاجاتٍ جديدة مؤسَّسة على قوَّةِ دلالات المثال الواقعي، وبما قد يُقصي أو يُطيحُ بمجموعةٍ من الاستنتاجات السياسيَّة السابقة حول أهميَّة وصحَّة الرِّهان على قوَّة تأثير التباينات الفكريَّة في الإطار العام للصهيونيَّة لجهة ترجمة ذلك إلى نتائج سياسيَّة مغايرة عن تلك التي رأيناها حتَّى الآن. تلك التباينات التي طبعت الأطروحة الصهيونيَّة بطابعٍ من التَّمويه أو التأويلات البرغماتيَّة المختلفة منذ انبثاقها وطيلة عقود طويلة من الزَّمن، وفق منهج ميكافيليٍّ مُلاحظ بوضوح، وليس بعيداً عن الاستفادة من إيحاءَات منطق ذرائعيَّة الأصوليَّة اليهوديَّة الكلاسيكيَّة في مختلف مجالات وتطبيقات الحياة ومنها السِّياسيَّة في هذا الصدد.

إنَّ تلك الاستنتاجات الخاطئة قادت إلى تركيز مقدارٍ كبيرٍ من المجادلات والاهتمام في سبيل تعريف وتفسير أُحجيَة وجدليَّة التَّنَوُّع في الفكر الصهيوني وتيَّاراته لصالح نظريَّة الاستثمار السياسي لتلك التَّباينات؛ دون الإدراك بأنَّ تلك الجدليَّة من التنوُّع كان فيها مقدار كبير من الذَّرائعيَّة والانسجام بما يكفلُ إلقاءَ كلَّ حَبِّ التَّنَوُّع والسياسات المتباينة ظاهريَّاً إلى رحى طاحونةٍ يمينيَّة قوميَّة ودينيَّة واحدة من الصُّهيونيَّة، بدأت تدورُ على نحوٍ منهجيٍّ مختلف في أعقاب حرب حزيران عام ١٩٦٧ وتَعمَّقَ دورانها وتسارع بعد عام ١٩٧٦ وهي مرحلة صعود قوى اليمين القومي والدِّيني إلى الحكم، ونهاية الهيمنة السياسية والاجتماعيَّة لما عُرِفَ بأنماط الصهيونيَّة اليساريَّة والاشتراكيَّة.

يبدو التمسك بمفهوم التوسع الإقليمي وما جلبه من مزايا سياسية وإستراتيجيَّة واقتصادية لإسرائيل كنتيجة من نتائج حرب حزيران عام ٦٧ وكمحصِّلة لاستمرار الاحتلال والمضي بمشاريع الاستيطان في قلب الأرض التَّوراتيَّة المُشتهاة في الضِّفة الغربية جزءاً أساسيَّاً من آيديولوجيا اليمين، تلك الأرض التَّوراتيَّة المُشتهاة التي بات من الواضح أنَّ إسرائيل استثنتها من حربها عام ٤٨ لسببين اثنين فقط، الأوَّل يتعلَّق بمحدوديَّة طاقاتها الاستيعابيَّة للجغرافيا كدولة وكقوَّة عسكريَّة ناشئة حديثاً، والثَّاني يتعلَّق بعوامل الدِّيمُغرافيا؛ إذْ لم يكن بالإمكان استيطان تلك المناطق على ضوء نتائج موجات الهجرة العددية المحدودة حتَّى ذلك الحين، بمعنى أنَّ نقص المخزون البشري اليهودي الضروري لتحقيق مفهوم التوسع في ذلك الحين هو ما أَجَّل المضي في مشروع إقليمي أرضي يتسع باتساع القوَّة ووسائل السيطرة - فبحسب إحدى التعبيرات الصهيونيَّة التقليديَّة القديمة : إنَّ أعداداً إضافيَّة من السكَّان اليهود تعني أرضاً أوسع. وسيَّما أنَّ الاستيطان في مرحلة موجات الهجرة اليهودية الأولى لم يفلح ولأسبابٍ متعددة في أنْ يكون واقعاً في منطقة الجبل المركزي – الهضاب شرق السَّاحل الفلسطيني أو الضِّفة الغربيَّة – على النَّحوِ الَّذي جرى فيه في منطقة السَّاحل في المرحلة التي سبقت حرب عام ٤٨.

وبالتَّوازي مع زيادة هيمنة اليمين يتزايد حضور اليمين الدِّيني الصهيوني في الخارج ويمثل الآن رافعة أساسيَّة لجهة دعم سياسات إسرائيل الاستيطانيَّة والأكثر يمينيَّة في كلٍّ من الولايات المتَّحدة وكندا بشكلٍ خاص – مع عدم استثناء نشاطات من هذا القبيل في أوروبَّا بشكلٍ عام وإنْ كان يبدو بصورةٍ أقل تأثيراً مما هو عليه في الولايات المتحدة وكندا – وينطلق هذا التَّحالف على قاعدة الإيمان المشترك بأفكارٍ يوتوبيَّة وميسيانيَّة دينيَّة تجمع بين رؤى الأرثوذكسيَّة اليهوديَّة وبين اليمين المسيحي المتطرِّف وفق استمرار منهج التَّفسير البروتستنتي الحرفي لكتاب العهد القديم كما أسلفنا سابقاً.

فهل يمكننا اعتبار تزايد هيمنة قوى اليمين على المشهد السياسي والاجتماعي في إسرائيل ولدى الشتات اليهودي في الخارج في هذه المرحلة وبما يَشي بالمزيد في هذا السياق مستقبلاً وكأنَّه مرحلة تُضاف إلى السياق المتدرِّج لجهة إفصاح الصُّهيونيَّة عن ذاتها، وفق رؤى جابوتنسكي على سبيل المثال؟. إنَّ جانباً من هذا الإفصاح يُترجم الآن وكأكثر من أيِّ وقتٍ مضى في تعميق الأنشطة الاستيطانيَّة وزيادة قوَّة ووتيرة تأثير مجتمع المستوطنين والنخب اليمينيَّة والدِّينيَّة التي تقوده معياريَّاً وفعليَّاً، بل والذَّهاب في خطواتٍ قانونيَّة وإجرائيَّة متقدِّمة نحو ضم الكتل الاستيطانيَّة إلى إسرائيل بشكلٍ نهائي، وهو الأمر الذي يجعل من النظرية السياسية، التي جُرِّبت طويلاً على المستوى الفلسطيني والعربي والإقليمي والدَّولي ، والمتصلة بمنطق الرِّهان على تحولات ممكنة قد تجري لجهة إزاحة هيمنة اليمين لصالح يسار صهيوني متجدد مُفترض الوجود والتأثير؛ مشكوك في صحَّتها؛ أمام واقع إسرائيل الاجتماعيَّة والثَّقافيَّة والسِّياسيَّة المتحوِّلة يميناً بشكلٍ منهجيٍّ متزايد مع مرور الوقت كما هو واضح.

هنا، وفي سياق الإشارة إلى الرِّهانات المبنيَّة على التَّكهُنات غير الصَّحيحة وعلى القليل من المعرفة بميكانيزم التَّحوُّلات الجارية لصالح تكريس واقع إسرائيل أكثر يهوديَّة وبالتَّالي أكثر يمينيَّة؛ لا بأس من اقتباس رأي بارز كان أدلى به البروفسور إسرائيل

شاحاك، وهو البروفسور في مادَّة الكيمياء العضويَّة في الجامعة العبريَّة في القدس سابقاً في كتابه بعنوان: «الدِّيانة اليهوديَّة وتاريخ اليهود: وطأة ٣٠٠٠عام»، وهو كتابٌ قدَّم له إدوارد سعيد في طبعته العربيَّة الثَّانية الصادرة في بيروت عام ١٩٩٧.

يقول إسرائيل شاحاك بهذا الخصوص -ومن اللَّافت أنَّ ما يقوله شاحاك في كتابه يعود إلى عام ١٩٩٣ وهو الأمر الذي عزَّزته الوقائع بشكلٍ جليٍّ منذ ذلك التَّاريخ وحتَّى الآن:

إنَّ المواقف المستمرَّة لليهوديَّة الكلاسيكيَّة تجاه الأغيار، تؤثر تأثيراً شديداً على أتباعها، اليهود الأرثوذكس، هؤلاء الصُّهيونيون الذين يمكننا اعتبارهم استمراراً لها، وهذه المواقف تؤثِّر أيضاً، من خلال الصُّهيونيين على سياسات دولة إسرائيل. وكانت إسرائيل، منذ عام ١٩٦٧، كلَّما أصبحت أكثر يهوديَّة؛ كلَّما تأثَّرَتْ سياساتها بالاعتبارات الآيديولوجيَّة اليهوديَّة أكثر من تأثُّرِها بالمصالح الامبرياليَّة المُبَلْوَرة بدون انفعالات. وهذا التَّأثير الآيديولوجي لا يدركه عادةً، الخبراء الأجانب، الَّذين يميلون إلى تجاهل تأثير الدِّيانة اليهوديَّة على سياسات إسرائيل، أو التَّقليل من أهميَّته؛ وهذا ما يُفسِّر لماذا كانت تكهناتهم تكهنات غير صحيحة. وفي الواقع فإنَّ الأسباب الدِّينيَّة، التي غالباً ما تكون أسباباً تافهة، هي التي تخلق الأزمات الحكوميَّة الإسرائيليَّة، أكثر من أيِّ سببٍ آخر. والحيز الذي تخصصه الصحافة العبرية لبحث الخلافات التي تنشب دائماً بين الجماعات الدينيَّة المختلفة أو بين العلمانيين والمتدينين أكبر من الحيز الذي تخصصه لأيِّ موضوعٍ آخر، إلَّا في أزمنة الحرب أو التوترات المتعلقة بالقضايا الأمنيَّة وفي وقت كتابة هذا الكتاب، أي في آب، ١٩٩٣، كانت بعض المواضيع التي تستحوذ على الإهتمام الأكبر لقراء الصحف العبرية، هي: هل يدفن الجنود الذين يقتلون أثناء الخدمة، في مناطق منفصلة ضمن المدافن العسكرية الإسرائيلية إذا كانوا أبناء أمهات غير يهوديات؟[١٩]

الهوامش

١ عزمي بشارة، **من يهوديَّة الدولة حتَّى شارون**، (رام الله: المؤسسة الفلسطينيَّة لدراسات الديمقراطيَّة، ٢٠٠٥)، ص. ٥٣.

٢ يمكن العودة إلى: غبيرييل بيتربيرغ، **المفاهيم الصهيونية للعودة**. ترجمة سلافة حجَّاوي (رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيليَّة – مدار، ٢٠٠٩)، ص. ١١٩ – ١٢٢.

٣ انظروا: صبري جريس، **تاريخ الصهيونيَّة**، الجزء الأوَّل، (مركز الأبحاث – منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٧٦)، ص. ٧٥-٧٦.

٤ جريس، **تاريخ الصهيونيَّة**...، ص. ٧١، ٩١، ٩٢).

٥ عبد الحفيظ محارب، **العلاقات بين التنظيمات الصهيونية المسلحة ١٩٢٧ – ١٩٤٨**، (مركز الأبحاث – منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٨١)، ص. صفحة ٣٠، ٣١.

٦ انظروا تعريفًا بـ «فلاديمير جابوتنسكي» على موقع النكبة: http://www.nakba.ps/criminal-details.php?id=10 (آخر مشاهدة آذار ٢٠١٨).

٧ إيلان بابيه، **التطهير العرقي في فلسطين**، (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينيَّة،٢٠٠٧)، ص. ٣٢١.

٨ زئيف شتيرنهل، **الأساطير المؤسسة لإسرائيل**، ترجمة عزَّت الغزَّاوي، (راماالله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية- مدار، ٢٠٠١)، ص. ٤٨، ٤٩.

٩ جريس، **تاريخ الصهيونيَّة**...، ص. ٧١، ٧٢.

١٠ جريس، **تاريخ الصهيونيَّة**...، ص. ٧٢.

١١ جريس، **تاريخ الصهيونيَّة**...، ص. ٧٣ – ٧٩.

١٢ جريس، **تاريخ الصهيونيَّة**...، ص. ٨٠.

١٣ جريس، **تاريخ الصهيونيَّة**...، ص. ٩١ – ٩٤.

١٤ بيتربيرغ، **المفاهيم الصهيونية** ...، ص. ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩

١٥ بيتربيرغ، **المفاهيم الصهيونية** ...، ص. ١٣٧، ١٣٨، ٣٠٩، ٣١٠ .

١٦ انظروا تعريفًا بـ «فلاديمير جابوتنسكي» على موقع النكبة: http://www.nakba.ps/criminal-details.php?id=10 (آخر مشاهدة آذار ٢٠١٨).

١٧ موشيه رفيف، **إسرائيل في الخمسين**، ترجمة محمود عبَّاسي، (شفاعمرو: دار المشرق للترجمة والطباعة والنشر، ١٩٩٩)، ص. ١٥٨، ١٥٩.

١٨ بيتربيرغ، **المفاهيم الصهيونية** ...، ص. ١٠٠.

١٩ يسرائيل شاحاك، **الدِّيانة اليهوديَّة وتاريخ اليهود، وطأة ٣٠٠٠ عام**، -الطبعة الثانية، ترجمة رضى سلمان، (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنَّشرْ-١٩٩٧)، ص. ١٧٣